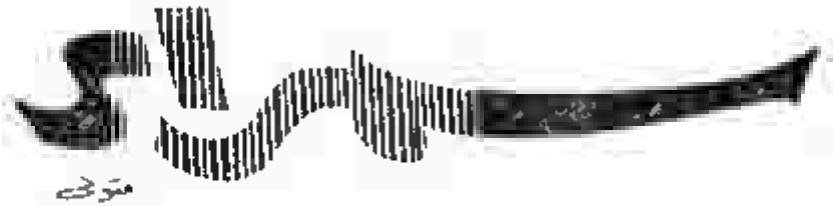

بقلم : حنيفه فتحى

الفتاة السمراء الحلوة مضطجعة فوق الحصير ، فى بيتها الطينى الصغير ... حفوفها نصف معصـــة ... وكان الوقت ظهرا .. والحر شديدا .. وقد جعلها القيظ ترمدى من الملابس ما هو قليل ... الحقول من حولها ساكنة ... والازهار على براعمها ناعسة ... حتى الطيور فى اعشاشها هاجعة .. ابنة العشرة من الاعوام والاربعة كعمر القمر ، بيتها خال الا منها وحدها ... فلقد خرج الاب الملاح الى حقله منذ الصباح ولم يعد ... وامها قد اودعتها سحرها منذ الطفولة ، ثم رحلت الى الابد ... وان كانت هناك فى السماء ... فى كل مكان ترشها بعين ساهرة ...

الفتاة السمراء الحلوة ... قد ورثت عن امها .. شعرها الناعم الطويل كالليل ادهم مظلمة ، وورثت منها عينيهـــا الســـوداوين اللامعتين المترقرقة ... ورثت نهديها المرتفعين كالحمل الشامخ وجسدها الســـمرى كالرماح المشرعه ورثت ايضا حبها للشمس .. أو حب الشمس لها ... حبها للغيوم والامطار حب الامطار والغيـــوم لها ... ورثت أحلامها الدهبية لاعوامها القادمة ... وآمالها الكبـــار فى ســـنوات مشرقة ، بالرغم من سمرة تشرتهـــا الخارجية ، فقد كانت تملك قلبا من ذهب .. من معـــة ... من جوهر وعقيق ... انها ابنة ملاح بسيط ... ولكنها فى كبريائها عالية ، ابنة ملاح صغير يزرع الارض بيديه ويحصدها ثم يأتى فى النهايه لابنته بحبرها ... ولكنها فى جمالها عالية ...

... ومن الباب نصف المفرح ...

... والهواء يدخل متسللا ...

... اطل هو برأسه متلصصا ليرى من تكون تلك الفتنـــه الســـاحرة .. تلك العذراء الحلوة الســـمراء المســـتلقية ، ورآها وشعاع من نور ملقى على وجهها ، وجسدها البكر ممدد فوق الحصـــير ، أحلامها نصف مغلقة ونصـــفها نصف حائرة ... انها تحلم ... تحلم بالحب والسعادة ... تحلم بالخير للانســـانية كلها ...

... وهو ... من هو ؟

... انه ضيف ... عابر ســـبيل أتى من المدينة ونزل بـــــتحيا عند بعض أصدقائه فى الضيعة المجاورة ، ثم خرج وحيدا فى الحقول الممتدة المترامية ليرى من سحر الطبيعة وجمالها ما يمحو عنه ســـوداء المدينة وضجيجها ... ما يمحو عن روحه كفرها والحادها ... اتى الى هنا ... الى الطبيعة والســـلام ...

انى ليرى مالم يره ... وليلمس ما لم يلمسه من قبل ... هنا الحياة الآمنة والنفوس الطاهرة ... هنـــا الهواء النقى دائما ...

ووقف امامهـــا يتفرس فيهـــا مبهورا متعجبا ... انها قطعة حية من الخيال قطعة من الفردوس فوق الثرى . وقف عند قدميهـــا بقامته الفارعة ورأسه الاشعث الجميل ووجهه الابيض كقطعة من الثلج فى ذلك القيظ الشديد ...

ثم انحنى عليها ولمس ذراعيها ... فتحت عينيهـــا ... ونظرت ... ثم ابتسمت ، وسألته عما يريد ... فقال لقد ضللت الطريق ... انى ضيف ... صديق ... أنيت من المدينة اسع قلبى .. فقد اشار لى اليك ...

ومدت كفيها فى سلام ... وافسحت له المكان ، ثم ظلت لتعد له شيئا من الطعام ... ولكنه ابى ... ثم مد يديه وامسك برسغها ... ثم اجلسها على الحصير ... واتصل بينهما الحديث ... وعلم ان اباها مات منذ الصباح ...

وعليه ان يعـــود مع حلول الظـــلام . كان يلمسها بعينيه ... يلتهم مفاتنهـــا بنظريه ... وامثلا رأســه بالاوهام ... وتحركت فى داخله الآثام ... من اين لها بمثله لو حاول ان يتلمها ... انها صغيرة ضعيفة ... وحيدة ... فى هذا المكان بعيدا عن العمران ... وهو قوى ... وذكى ... وثرى ...

أليس البقاء للاقوى من هذه الحياة ؟؟

أليست شريعة الغاب هى التى تحكم وتسود مهما يبلغ بنا الرقى وتتهذب بنا النفوس . انه سر ... وتعيش ... بالرغم من بياض جلدته ورقة لكنته ... وهى ... من هى ؟؟ انه يدرى تماما من هى ... انها كنز ثمين ... وذهب دفين ... مهما تكن تشرتهـــا سوداء ... انها لقمة سائغة ... لقمة هنيئة لذيذة خلقت لمتعته .. خلقت لمن هم فى ثرائه لمن هم فى مطمئنه .

ثم انحنى عليها ... وضمها بقوة ... بلهفة وانتصار ... وخافت المســكينة ولكنه داوم الهجوم على لهفة المحـــروم

بيد من حديد .. حول الجسم الصغير وكشف الجسد الصغير من كنوزه الخفية ... كنوزه العذرية...واعترف الرجل بيديه وفمه وشفتيه .. واستغرق الخبير .. ملء رئتيه ...

وظلت العذراء على الحصير مستلقية ... تنظر الى قدميه .. الى وجهه الاسمر كصحراء بلادها ... الى عينيه الحمراوين كأنهما امتصتا كل دمائها...ثم مدت اليه كفيها لكي يساعد بها ... لكي ينهضها ويرفعها اليه ... لكي يفي بوعده مادام قد استباح جسدها فابتسم ساخرا... وادار لها ظهره... وادخل من البابكما دخل ... وصاحت هي بغتة ... انتظر ... التفت لتتزود من الطبيعة بالايمان ام لتلعنه فيها سبك الحرام !!

ونهت الرجل واستدار ، وقال في احتقار : « انسي دائما افعل ما اريد دون حساب ولا رقيب وانت من تطلبين نفسك ... انسيت انك جارية !! ونظرت اليه في حزمها .. في اسفها .. ان المدينة اكل جسدها ... مزق قلبها ... ولكن لم يستطع ان ينال من روحها ... انها الآن ليست طفلة ... انها سيدة ... لقد تحولت الى سيدة...لم تعد انسة الرابعةعشرة... في لحظة ألم تحولت الى ثلاثة قرون من الزمان ... ثلاثمائة عام ... من العذاب ... من الانتقام ... انها لم تعد على الحصير مستلقية ... لقد عبت امامه كالاعصار ... جسدها الذي الطويل كالسهام المشرعة ...

رأسها يطاول رأسه ان لم يكن اطول انها سيدة عالية واعية ... لحقها العار ... فلتنتقم ... والا فلتلحق جارية ... ان كفيها قاتلتان .. بدلتهما الآلام والكرامة الجريحة من عشة رقيقة الى اخرى عارية .. انها هو .. من هو !! ... يقف امامها ماكيله .. بقوته وعظمته ... ولكنه من ناظريها ... اين هو !! حولته الشهوات والآثام الى حشرة هائمة في الدراري ... في الحقول ... تبحث عن غيرها لتتغذى من الدماء الحارة.. ملمس الدماء في فمه علقما وسما ... واللحم الطري رمة بالية...انه حشرة تستطيع ان تطأها بقدميها فتقتلها ... فلتقتله ...

بكفيها ... بقدميها ... بكل ذرة من جسمها ، احاطت به وهتفت ... وانتقمت لنفسها ...

الآن هي ليست جارية ... الآن هي سيدة نفسها وعمرها ... سيدة حاضرها واعوامها الآتية .